

## تراث الأندلس

إن بلداً كإسبانيا لن يستطيع أن يستكين لحظ تافه . فهذا المضلع الشاسع القائم عند طرف أوروبا الغربي ، ذو التضاريس المترعة المتعددة والآفاق المتباينة ، يؤلف مجموعة جغرافية هي أقل المجموعات تناسقاً . فالحياة تختلف فيه بين إقليم وآخر ؛ فهي سهلة ناعمة هنا ، وخشنة قاسية هناك . ويتفاوت أهلها تفاوتاً عميقاً تبعاً لجنسهم وأرومتهم ؛ وقد لا توجد بقعة على وجه الأرض مثلها تتباين فيها خصائص أهلها ، حتى لقد تؤدي إلى الاصطدام أحياناً بطريقة مروعة . وقد كان حظها — حتى نهاية العصر المتوسط على الأقل — خاضعا لمركزها الجغرافي ولظرف تاريخي غير عادي عظيم المدى : هو وجود الإسلام على جزء كبير من أرضها ، فكان ذلك يتطلب من الفریق الآخر بذل مجهود أشبه بمجهود الحروب الصليبية ، واستدكاء هذا المجهود عدة أجيال متعاقبة .

إن لإسبانيا واجهتين بحريتين ، تشرف إحداها على البحر الأبيض المتوسط ، وهو طريق المدينة القديمة ، وتطل الأخرى على المحيط الأطلنطي الذي بقي أمداً طويلاً يحيط الظلمات ومقر الجهول الخيف . وتتصل ببقية أوروبا بحاجز مؤلف من سلسلة جبال وعرة عسيرة الاجتياز هي جبال البرانس . أما إلى الجنوب ، فانها على العكس ، تكاد تلمس أفريقيا ، ولا يفصلها عنها إلا مضيق جبل طارق . إنها في الواقع جزيرة ، وهي جزيرة بغير ماشك هائلة ، ولكنها جزيرة مشاعة — بفضل تكوينها الطبيعي — بين أوروبا وأفريقيا . فهي بمثابة المزلاج ؛ لأنها توصل باب البحر الأبيض المتوسط في الغرب ، وهي بمثابة الجسر لأنها على الرغم من العوائق الطبيعية التي تعزلها عن بقية أوروبا وأفريقيا ، بمثابة الطريق الأرضي الوحيد الذي يصل بين هذين الجزأين من العالم ، والحضارات التي تستطيعان تمثيلها .

لقد أدرك العرب تمام الإدراك صبغة أسبانيا الجزائرية إذا أطلقوا عليها اسم « جزيرة الأندلس ». ويحال أنهم أدركوا بسرعة أن هذه الولاية الشاذة عن إمبراطوريتهم والتي ضمت إليها بفضل مغامرة لجائية جريئة غير منتظرة ، كأنها ، في تلك الإمبراطورية ، بمثابة « زحف » حقيقي إلى جوار الغرب المسيحي مباشرة ، وإلى أبواب أوروبا التي كانوا يجهلون ويقترضون على تسميتها ، بعير محديد ، باسم « الأرض الكبيرة ». وعند ما انشقت الأندلس سياسياً عن تلك الإمبراطورية ، بعد بضع عشرة سنة ، لتصبح دولة لأحد الأمراء المهاجرين من الأسرة الأموية التي حكمت في سوريا ، وجدت هوة زادت مع الأجيال عمقاً واتساعاً ، فلم تلبث أن انفصلت عن الشرق العربي فزاد صبغتها الجزائرية ، وفي نفس الوقت ، زادت خصائصها .

على أن خصائص أسبانيا الإسلامية لم تنشأ فقط عن عزلتها عن بقية العالم العربي واليونان الشاسع الذي يفصلها عن الشرق ، بل كانت هناك شتى الأسباب الداخلية : اختلاط الأجناس في شعب قليل التجانس مؤلف من أقلية من العرب ، ومن البربر الذين جاءوا من أفريقيا الشمالية ، ومن الفرنج ، ومن السلاف ، ولكن بصفة خاصة من جمهور الأهالي الذين اعتنقوا الإسلام ، والمولدين ؛ ثم وجود جماعات هامة من سكان المدن والريف الذي ظلوا على مسيحياتهم دون أن يضطهدوا بفضل التقليد الحر في النظام السيامي الأندلسي ؛ ثم اختلاط طوائف يهودية نشيطة في وسط المجتمعات ، أيّاً كانت أهميتها ، تحت حماية السلطة المركزية الإسلامية . وهي خصائص ترجع أيضاً إلى استعمال اللغة الرومانية المشتقة من اللاتينية ، إلى جانب اللغة العربية ، وأحياناً لغة البربر ؛ وهي خصائص ترجع في النهاية — وهذا هو العامل الجوهري بغير شك — إلى الإطار الجغرافي الذي يختلف جداً ويمتاز كثيراً في مجموعه عن إطار جميع الجهات الأخرى من دار الإسلام . وإنه لمن المؤكد أن سكان المدن ، والقرويين ، وسكان الجبال ، والفلاحين المقيدين بأعمال الأرض ، كل هذه المجموعة التي كانت تؤلف الشعب الأندلسي في جنوب شبه الجزيرة ، في العصر الإسلامي ، كانوا أقل شياً منهم اليوم بمواطنهم في أودية أسبانيا الوسطى المرتفعة ، وأقل ذلك طبعاً ، بأعدائهم اللد في مملكة ليون وقشتالة المسيحيتين . على أن أندلس السهول والجبال والمناطق الساحلية الخصبة أو أعلى الجبال الوعرة القاحلة ، كانوا مع ذلك متقاربي

الشبه إلى حد أنه قد رسخ في أذهانهم ، رويداً رويداً وبغير ما إدراك ، شعور بأنهم ووطنهم يؤلفون شيئاً فذاً في عالم الإسلام .

على أنه يجب الاعتراف مع ذلك بأن الأدب العربي في أسبانيا لم يعبر صراحة عن هذا الشعور إلا نادراً . وإنه تخليق أن نذكر بإكبار محافظة الأندلس — إبان تاريخها بأكملها — على تمسكها ببقية العالم العربي وعبقرية حضارته تمسكاً يملؤه الإجلال القريب من الشعور النبوى . ولقد تجلّى هذا التمسك ، أول ما تجلّى ، في الدين . فما أن اعتنقت أسبانيا الإسلام حتى جاهرت بحزم بأنها محافظة ، وظلت بعد ذلك مرتبطة ، من ناحية السنّة والشرع ، بتقاليد العصور الأولى . وشاع المذهب المالكي في جميع أنحاء الأندلس حتى النهاية . واهتم بنشاط لا يعتوره وهن بقمع كل محاولة ترمى إلى نشر التيارات الجديدة . واضطهد الزندقة . واحتفظ للبلاد بتعلقها الوثيق بأهداب الدين . وحارب بقسوة المفكرين الذين كانوا يسعون إلى التحرر من قيوده كابن مسرة وابن حزم دون أن نذكر غيرها . وتخف تلك الشدة ردهاً من الزمن خلال حكم المرابطين ؛ إلى أن جاء الموحدون وفرضوا على الأندلس سنّة للتوحيد أشد صرامة وقسوة .

على أن هذا الاتجاه المحافظ يتجلّى كذلك في أسبانيا في عدة نواح غير الدين . أما من ناحية الحياة الاجتماعية بصفة خاصة ، فاننا لو نظرنا إلى تلك البلاد عن كثب فإننا نجد أنها تظهر — حتى القرن الثاني عشر على الأقل — بمظهر عتيق جداً هو نفس الذى ظلت تحافظ عليه مرا كش الوريثة الفعلية للحضارة الأسبانية الإسلامية وعقائدها إلى عهد قريب جداً ، وظلت مدنها الكبيرة ، فاس ، ورباط ، وططوان بصفة خاصة ، تحافظ على مظهرها الوفى للمدن الأندلسية . ففي هذه المدن ، وفى خلال العصر المتوسط من أوله إلى نهايته ، ظلت إحدى طبقات المجتمع ، وهى طبقة الفقهاء ، تتمتع بمكانة ممتازة . ولم تكن هذه التسمية تشمل علماء الشرع فقط ، ولكنها تتجاوزهم إلى جميع ممثلي العلوم العربية الدينية كما كانت تزدهر ، فى نفس الوقت ، فى الشرق ؛ أما فى أسبانيا ، فيجدر القول بأن عدد الفقهاء من أصل بربرى أو المولدين كان يزيد على من كانوا من أصل عربى .

وهذا الاتجاه المحافظ الذى يقوم على احترام التقاليد الشرقية ، يفسر أيضاً

لماذا ظل عدد كبير من المعاهد الإسلامية القديمة قائماً في أسبانيا في حين أنها كانت ، في بقية العالم العربي ، تنهار شيئاً فشيئاً وتلاشى . إننا نعلم إلى أي حد من الغيرة استطاعت أسبانيا أن تصون التراث الذي نقلته إليها خلافة دمشق وتحفظ به كاملاً ، وإن مجرد بقاء « تقليد سورى » قائماً واستمراره أمداً طويلاً ، هو من الصفات البارزة للحضارة الأندلسية ، حتى في الوقت الذي اضطرت فيه تلك الحضارة إلى قبول ما دخل عليها ، وبصفة خاصة ، في الوقت الذي تركت فيه بعض تيارات حضارة بغداد — المتشعبة بدورها بالحضارة الفارسية — تطفئ عليها .

وقد كان من نتائج هذا الاتجاه — في عالم الأدب — أن كف إلى الأبد عن الإنتاج الممثل للعبقريّة الأندلسية على حقيقتها ، وظل الأدب العربي الأسباني ، حقبة طويلة ، لا يؤلف إلا جزءاً من مجموع الأدب العربي وإن كان بالفعل مشرفاً فهو عار عن كل شخصية . وكان يخال أن أغلب الكتاب في أسبانيا الإسلامية ، وفي جميع العصور ، قد أجمعوا على عدم الاهتمام — إلا في بعض مؤلفاتهم المتناثرة في النثر الفني والنظم العامي — بالوسط الجغرافي والمركب الجنسي المميزين لهم والذين يتألف منهما إطار حياتهم اليومية . فقد كانوا يؤثرون الانتقال بالفكر إلى شرق كان أكثرهم لا يلمون عنه بمعلومات أكثر مما هو مدون في الكتب ليستلهموا منه نفثات وحيمهم . لقد ازدروا الموارد التي تنطوى عليها تربتهم الخصبّة العذراء ، ومالوا إلى سبر غور غيرها مما نفذ استغلاله منذ عهد بعيد ونضب معينه . وكان اللغويون وكتاب النحو والعروض ، ومصنفو المعاجم ، وشرح الغرر الأدبية ، يكتبون في أسبانيا وهم ينتقلون بشخصيتهم إلى بلاد العرب أو العراق . فكتب مثل ابن عبد ربه يهتم بوضع ديوان من الشعر الشرقي ، ولغوى مثل ابن سيده يضع موسوعته دون أن تجد فيه اللغة العربية الأندلسية ، وهي لغته الشخصية ، أدنى مجال . بل الشعراء أنفسهم ، فقد كان أكثرهم يرتاح إلى الوضع الذي جرى عليه أسلافهم الشرقيون ، وكان لابد لهم من وقت طويل ليدركوا في النهاية ، أنه توجد ، تحت أنظارهم ، طبيعة منسجمة جميلة جدرة بأن توصف هي أيضاً دون أن تفقد من قيمتها . بل إنهم ، عندما أدركوا ذلك ، كانوا لا يحسنون التخلص دائماً من تأثير التقاليد الشرقية المستبد والذي كان يتجلى في شكل استعارات أدبية ، وذكريات ،

واستشهادات . وكثيراً ما يرى الإنسان نفسه أمام مقتبسات أو كتابات أحسن فيها التلاميذ تقليد أساتذتهم .  
ولن تكون مقاومة هذا الاتجاه دائماً إلا مجرد محاولات فردية . فبعض النقاد ، وبعض كتاب المختارات الشعرية ، أمثال الفتح بن خاقان وابن بسام ، يشيرون أحياناً إلى المحاولات المتواضعة التي يقوم بها بعض الأدباء الذين يفكرون في التخلص من قيود أدب كلاسيكي لا تناليد ووصل إلى حد الاتقان . على أن مسألة ابن حزم ، الذي يقرر في مقدمة « طوق الحمامة » بأنه أندلسي ، وأنه لا شأن له باستلهاام الوحي بذكر صحراء العرب والبدو الذين يخترقونها ، ستظل مسألة فردية للغاية ، وستظل أكثر البحوث الملهمة مقترنة بالعالم العربي الشرقي . وكان لا بد أن تزدهر أنواع جديدة من الأدب ذات صبغة شعبية وموجهة إلى جمهوراً أكثر انتشاراً لا إلى فئة مختارة ذات ثقافة كلاسيكية ، ليلم التوازن إلى حد ما ، مع ذلك التمسك بالمدارك التقليدية البحتة . وإني أقصد بصفة خاصة ، وبدون إفاضة هنا ، أنواع النظم المعروفة بالموشحات والزجل التي زانها كثير من الأندلسيين ، وبصفة خاصة ، أبو بكر بن قزمان . لقد يتسنى قريباً ، متى عرفت مؤلفات هذا الشاعر معرفة تامة ، أن تعرض بوضوح تلك المسألة المركبة التي طالما نوقشت ، وهي احتمال تأثير شعر الزجالين الأندلسيين في المداحين البروفانسيين ، وتأثير الشعر العربي بلهجته الأسبانية في الشعر الروماني في الغزل الرقيق . ويجدر بالذكر هنا أن هذه الأنواع الجديدة ، بمرورها السريع من أسبانيا إلى الشرق ، بتيار معكوس ، إذا صح هذا التعبير ، وانتشارها العظيم في الحال ، قد توجد تعليلاً قيمياً يجعلنا نفرض أن هناك تأثيرات أندلسية كان يمكن أن تسيطر على العالم العربي لو أن أسبانيا — بعد أن تكون قد جددت نفسها — أرادت أن تعنى بذلك .

على أن دورها الحقيقي حيال الحضارة العربية كان غير ذلك ، بل ربما كانت قد فهمت هذا الأمر في شيء من الغموض . إن دورها الحقيقي ، الذي كان يجب أن تؤديه كاملاً ، هو أن تشرق بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، على غرب أوروبا ، وأن تنقل إليه على الأقل جزءاً من التراث الذي ورثته بدورها عن الشرق واحتفظت به بشغف في أرضها ، سواء أكانت قد طبعته بطابعها الخاص أو لم تطبعه .

ففي أسبانيا بالطبع ، وبعد مرور ما يقرب من نصف الألف من السنوات منذ نهاية استرداد أسبانيا نهائياً ، يظل تراث الأندلس خالداً وأقرب منالاً ، فأثره العميق مازال واضحاً في جميع أنحاء شبه جزيرة إيبيريا ، ولكن ، كما هو طبيعي ، في المقاطعات القبلية والشرقية التي ظلت تدين بالإسلام طويلاً . وهناك نكهة من العربية توضع في جو كثير من المدن ، كبيرة وصغيرة ، لم يتغير في الغالب تركيبها منذ العصر الإسلامي . إن طابع أسبانيا العربية يتجلى في الفن الشعبي والاصطلاحات الصناعية ، وطرق استغلال الأرض ، وطرق الزراعة والرعى . لقد أثر هذا الطابع تأثيراً عميقاً في الحرفات الشعبية ، وموسيقاه ، بل في طريقة المعيشة والتصرف والتفكير عند جماعات هامة من الشعب . إن اللغة العربية الأندلسية ، باصطلاحاتها اللفظية الخاصة ومقاييسها الخطائية ، قد ساعدت كثيراً على تكوين مفردات لغة قشتاله ، وهي كما هو معلوم ، لغة أسبانيا الوطنية ؛ على أن الكلام الدارج في بلنسية ومرسية وغرناطة يشتمل على نسبة أكبر من الألفاظ العربية . هذه الاستعارات المباشرة تؤلف معجماً متنوعاً جداً ، إذ يتضمن الاصطلاحات الفنية الزراعية ، وأسماء الأعشاب والنباتات ، والأشجار ، والفلكية ، والأقمشة ، والأثاث ، والألوان ، بل تسمية مئات من المعاهد العامة ، مع معاهد الموظفين التابعين . إن جزءاً كبيراً من الكلمات والاصطلاحات لأسماء الأثاث الفاخر والزينة ما زالت إلى اليوم من مصدر عربي . وإنه ليس من الجرأة في شيء أن نستنبط أن الأسماء قد مررت إلى أسبانيا المسيحية في نفس الوقت الذي مررت فيه المسميات ، وأنه اعتباراً من القرن العاشر على الأقل ، دخلت أزياء قرطبة ، وأشبيلية ، وطليلة ، وسرقسطة الإسلامية في دور الأمراء المسيحيين في شمال البلاد ، حيث حملت للمرة الأولى ، إلى أرسوقراطية تملؤها الفضائل الحربية ولكنها غير مثقفة ، معنى البذخ والترف ، أو ما هو أبسط ، معنى الرفاهية والراحة . وبعد قليل من تحرير ولايات أسبانيا الوسطى وعودتها إلى أحضان المسيحية ، لعبت التأثيرات كذلك بقوة أشد ، خصوصاً عن طريق المستعربين الذين ، مع إنكارهم للإسلام ، لم يتخلوا إطلاقاً عن ثقافته ولغته . إن في استمرار استعمال اللغة العربية في جميع الاتفاقات ، وفي جميع عقود البيع في طليطلة زهاء جيلين أو ثلاثة أجيال بعد فتحها التاريخي بمعرفة الفونس السادس عام ١٠٨٥ ، لدليل واضح على الطابع

الذي خلفته هذه الحضارة . وبعد ذلك العهد أيضاً ، حين تلاشى استعمال العربية أمام الأسبانية عند طوائف الموريسك الذين ظلوا على إسلامهم ، فإن الكتابة بالعربية ، لا باللاتينية ، هي التي كانت تستعمل لتحديد النطق ؛ وبالحروف العربية أيضاً كانت تدون كتب التعاليم المسيحية ، ومختارات الصلوات ، بل كذلك بعض المؤلفات أو المستندات ذات الصبغة العلمانية .

ففي نقل هذا التراث الإسلامي الأندلسي ، يجب أن يراعى ، إلى جانب الدور الذي لعبه المستعربون ، الدور الذي لعبه الوسطاء اليهود بين الثقافتين . كان يهود أسبانيا الذين يتكلمون لتعنين (خلاف العبرية لغتهم الدينية) كثيرى التنقل ، بحجة الأعمال ، من الولايات الإسلامية إلى الولايات المسيحية ؛ وكانوا كثيراً ما يتجاوزونها إلى فرنسا حيث كان يجذبهم وجود طوائف يهودية كبيرة في مقاطعتي اللانجدوك والبروقانس .

إنه لا بد من صفحات كثيرة لكي نحلل تماماً الأسباب المتعددة التي سهلت بل فرضت أيضاً ، بصفة عامة وبطريقة غير مباشرة وبمساعدة المراحل المتعاقبة ، الحصص التي قدمتها الحضارة الإسلامية لأوروبا الغربية التي لم تفكر إطلاقاً في نبذها بسبب موردها . إن ما يهم هو أن نحاول ، في مقال بسيط ، أن نستخلص الدرس الذي تتضمنه هذه الحصص وتنطوي عليه .

إن المؤرخين يدركون اليوم — وتلك نعمة جديدة — أن أوروبا ، اعتباراً من القرن الثاني عشر ، لم تحصل من انتصاراتها الحربية على الإسلام ، سواء في غرب البحر الأبيض المتوسط أو في شرقه ، على أرباح مادية فقط ، ولكنها حصلت أيضاً على أرباح لا تقل شأنًا ، إذ هيأت لها الفرصة لتفتح عينها على عالم آخر وتوسع ، بطريقة عجيبة ، أفق مداركها العقلية . لقد استطاعوا أن يقولوا ، وليس ما قالوه اغتباطاً ، إنه وإن كان من غير الحكمة أن يسند إلى علماء الإسلام الفضل الوحيد في كثير من الاستكشافات المنسوبة إليهم بحكم التقاليد ، سواء في عالم الفلسفة أو العلوم الصحيحة ، إلا أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأنهم ، في الشرق وبصفة خاصة في أسبانيا ، قد أذكوا بنشاطهم الذي لم يعتوره كلل أو ملل ، شعلة لولاهم لأوشكت أن تنطفئ : وهي النظر إلى الأمور نظرة علمية . ومن ثم ، هدوا أوروبا إلى الطريق ، ووضعوا في متناول يدها مجموعة من المؤلفات الرئيسية ، وقطعوا شوطاً بعيداً في طريقة معرفة اللغات والآداب القديمة وفي طريق النهضة العلمية .

ففي القرن الثاني عشر إذن ، وبينما كانت الممتلكات الإسلامية في الأندلس قد تضاءلت تماماً ، بدأ يتجلى تعاون الثقافتين ، العربية واللاتينية ، تعاوناً وثيقاً مثمراً . لن تكفي الإشارة مطلقاً إلى أهمية مدرسة المترجمين التي أسسها أمير أسباني مثقف هو الفونس العاشر العالم ، وأدارها تحت رعايته في طليطلة ابتداء من عام ١١٣٠ . فقد صدرت عن هذا المجمع المنقّب الذي تعاون فيه المسلمون واليهود والمسيحيون ، عدة مؤلفات علمية كانت إلى ذلك العهد مجهولة في أوروبا ، ونقلت إلى الغرب : كمؤلفات أقليدس ، وبطليموس الإسكندري ، والخوارزمي ومسامة الأندلسي .

إن يكن دور أسبانيا الإسلامية ، بحسب الحوادث والأزمات ، دور ملهمة للمبادئ التي تجلت عنها عبقريتها بالذات ، أو ، مع التواضع ، إن تكن قد اتخذت مرحلة للعلوم العربية والثقافة الشرقية ، فإن فضلها في ذلك لن يكون أقل أثراً أو شهرة ، وإنه ليكفي تماماً ليسوغ ذلك الحب الرقيق الطاهر الذي يبديه نحوها جميع ممثلي الثقافة العربية العصرية ، والفلاسفة ، والعماء ، ونقاد الأدب ، وكذلك الشعراء والروائيون ، وكتّاب المسرح . ففي اليوم الذي تقوم فيه مصر بصفة خاصة ، بالمهمة التي تهيأت لها بكرم ونبل لتنشر المؤلفات الرئيسية العديدة التي لم تنشر بعد عن الأدب الأندلسي والتي تتضمن لمحة من الحضارة الهسبانية ، في ذلك اليوم يتجلى تراث الأندلس الروحي أكثر مما هو عليه ، ويسترد مكانته الكاملة ، ويصبح خط اتصال أوجدته العناية بين الشرق والغرب عند حدود الأزمنة العصرية .

١٠ بقى - بروفنسال

نقلها إلى العربية سنيم سعده